قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي

المحاضرة الأولى : التحول الحرفي في الغرب الإسلامي بعد الفتح

مقدمة

تشكل دراسة التاريخ الاقتصادي للغرب الإسلامي (بلاد المغرب والأندلس) حلقة مفصلية لفهم ميكانيزمات الحضارة الإسلامية في شقها المادي. وإذا كان المؤرخون التقليديون قد ركزوا طويلاً على التاريخ السياسي والعسكري للفتح الإسلامي، فإن الدرس الحديث يتجه نحو استنطاق البنى الاقتصادية والاجتماعية التي رافقت هذا الحدث الجلل.

إن موضوع محاضرتنا اليوم" :**التحول الحرفي في الغرب الإسلامي بعد الفتح"**، لا يعالج مجرد تطور في أدوات الإنتاج، بل يرصد "ثورة صناعية" -بمقاييس العصور الوسطى- نقلت المنطقة من ركود الاقتصاد البيزنطي والقوطي المعتمد على الإقطاع الزراعي، إلى دينامية الاقتصاد الإسلامي الحضري المعتمد على الإنتاج الحرفي والتبادل النقدي.

سنحاول في هذه المحاضرة تفكيك عناصر هذا التحول من خلال طرح الإشكالية التالية :**كيف ساهم الفتح الإسلامي في إعادة تشكيل البنية الحرفية في المغرب والأندلس؟ وهل كان هذا الازدهار مجرد استنساخ لنموذج المشرق (بغداد ودمشق) أم أنه أسس لنموذج إنتاجي مستقل وفاعل في حوض المتوسط؟**

تفصيل المحور الأول: عوامل ودوافع التحول الحرفي في الغرب الإسلامي

لا يمكن فهم القفزة النوعية في الإنتاج الحرفي في الأندلس والمغرب بمعزل عن الظروف المستجدة التي خلقها الفتح الإسلامي. هذا التحول كان نتاج تضافر أربعة عوامل رئيسية:

1. العامل الديموغرافي والعمراني (جدلية المدينة والحرفة)

هذا هو "المحرك الأساسي". الإسلام دين حضري بامتياز، والفتح الإسلامي كان حركة بناء مدن.(Urbanization)

- **نشأة الحواضر الكبرى :**تأسيس مدن مثل **القيروان** (50هـ)، **فاس** (192هـ)، **تاهرت**، وتوسعة **قرطبة**، خلق تجمعات بشرية كثيفة لا تعتمد على الزراعة المباشرة، بل تحتاج إلى من يخدمها (حرفيين).
- **التخصص المهني :**في القبيلة أو القرية، الفرد يصنع كل شيء بنفسه. في المدينة الكبيرة، الكثافة السكانية تسمح بـ **تقسيم العمل** .أصبح هناك من يتخصص فقط في "الدباغة"، وآخر في "الخرازة"، وثالث في "الصباغة."
- **العمارة كقاطرة للحرف :**بناء المساجد الجامعة (مثل جامع قرطبة والقرويين) والقصور لم يتطلب فقط بنائين، بل حرك مئات الحرف المرتبطة: الجبس، الخشب المحفور، الزليج، والزجاج.

2. الثورة الزراعية وتوفير المواد الخام(Input)

لا يمكن أن تزدهر حرفة النسيج أو الورق دون مواد أولية. الفتح الإسلامي ربط الغرب الإسلامي بالشرق وأدخل تقنيات زراعية جديدة (ما يعرف بـ **الثورة الزراعية العربية**).

- **النباتات الصناعية:**

- **القطن :**انتشرت زراعته في الأندلس وصقلية والمغرب، مما خلق صناعة نسيج قطني لم تكن معروفة سابقاً لدى الرومان أو القوط (الذين اعتمدوا على الصوف والكتان).
- **قصب السكر :**زراعته في السواحل الأندلسية والمغربية أدت لظهور "معاصر السكر" كصناعة تحويلية.
- **النباتات الصبغية :**زراعة الزعفران والنيلة (Indigier) والفوة، وفرت المادة الأساسية لصناعة المنسوجات الملونة الفاخرة التي اشتهرت بها المنطقة.

- **دودة القز (الحرير :(**توطين تربية دود القز في الأندلس (خاصة منطقة المرية) جعل الحرير مادة أولية محلية رخيصة بعد أن كانت تستورد بأسعار باهظة من الصين أو بيزنطة.

3. وحدة المجال الاقتصادي وهجرة "التقنية(Transfer of Technology) "

سقوط الحدود السياسية بين المشرق (بغداد/دمشق/القاهرة) والغرب (القيروان/قرطبة) سهّل انتقال "المعرفة التقنية" وليس البضائع فقط.

- **هجرة الحرفيين (الصنّاع) :**توافد الحرفيين من العراق ومصر والشام نحو المغرب والأندلس بحثاً عن فرص في البلاطات الحاكمة الجديدة.
- *مثال :*صناعة **الخزف ذو البريق المعدني** انتقلت تقنيتها من بغداد إلى القيروان (في عهد الأغالبة) ثم إلى الأندلس.
- *مثال :*صناعة **الورق (الكاغذ)** التي انتقلت أسرارها من سمرقند إلى بغداد، ثم حملها الحرفيون إلى فاس وشاطبة (Xativa) بالأندلس، لتصبح شاطبة أول مصنع للورق في أوروبا.

- **التقليد والمحاكاة :**رغبة حكام قرطبة والقيروان في مضاهاة بغداد دفعتهم لاستقطاب الخبراء لتأسيس صناعات تحاكي الشرق (مثل زرياب الذي لم ينقل الموسيقى فقط، بل أذواق اللباس والأثاث، مما حرك حرف النسيج والنجارة).

4. دور الدولة: الطلب السلطاني(State Demand)

الدولة لم تكن مجرد منظم، بل كانت "أكبر زبون" و"أكبر منتج" في قطاعات استراتيجية:

- **نظام "الخِلع" والهدايا :**البروتوكول السياسي كان يقتضي توزيع آلاف الحلل والملابس في الأعياد والمناسبات على الجيش والحاشية، مما استدعى إنشاء **"دور الطراز "**(مصانع نسيج حكومية) التي شغلت آلاف الحرفيين.
- **الجهاد والصناعة الحربية :**الحاجة المستمرة للأسطول (خاصة في العهد الأموي بالأندلس والفاطمي بإفريقية) أدت لإنشاء **"دور الصناعة** .**(Arsenals) "**هذه المؤسسات كانت مجمعات صناعية ضخمة تضم النجارين، الحدادين، وصناع الحبال والزفت.
- **سك العملة (دار السكة :(**تحول الغرب الإسلامي من المقايضة إلى الاقتصاد النقدي تطلب حرفيين مهرة في السبك والنقش (فنون المعادن الدقيقة).

ملخص تركيبي للمحور الأول:

يمكنك اختتام هذا المحور بمعادلة بسيطة لتثبيت الفكرة:

وفرة المواد الخام (زراعة وتعدين) + كثافة سكانية (مدن) + خبرة فنية (هجرة الحرفيين) + طلب قوي (الدولة والأسواق) = نهضة حرفية شاملة.

المحور الثاني: مظاهر التحول في القطاعات الحرفية (نماذج تطبيقية)

في هذا المحور، سنقوم بتشريح البنية الإنتاجية للغرب الإسلامي من خلال أهم الصناعات التي شكلت عصب الاقتصاد، وقادت حركة التصدير نحو أوروبا والعالم الإسلامي.

1. صناعة النسيج (الطراز): "الذهب السائل" للقرون الوسطى

النسيج لم يكن مجرد حرفة لسد الحاجة، بل كان الصناعة الأولى والأكثر ربحية (بمثابة صناعة السيارات أو التكنولوجيا اليوم).

- **ثنائية الإنتاج:**
  - **طراز الخاصة :(Royal Factories)** ورشات تابعة للدولة (داخل القصور أو قربها) تنتج أقمشة فاخرة لا تباع في الأسواق، مخصصة للخليفة والحاشية والهدايا الدبلوماسية، وتكتب عليها أسماء الحكام (أهمية سياسية).
  - **طراز العامة :(Public Workshops)** ورشات يملكها الخواص في الأسواق تنتج للاستهلاك المحلي والتجاري.
- **التخصص الجغرافي والمواد:**
  - **الحرير والديباج :**اشتهرت بهما **الأندلس** (خاصة ألمرية "Almeria" التي كانت تضم آلاف الأنوال)، وقرطبة وإشبيلية. التقنية هنا كانت معقدة جداً (استخدام الذهب والفضة في النسيج).
  - **الصوف :**تميز به **المغرب** (خاصة تلمسان وفاس وسجلماسة) نظراً لطبيعة البيئة الرعوية ووفرة الأغنام. المنسوجات الصوفية المغربية (مثل الكساء والأغطية) كانت تصدر لجودتها.
  - **الكتان :**ازدهرت زراعته وصناعته في تونس ومصر، وانتقلت تقنياته للأندلس.

إشارة مصدرية :يُحيل الأستاذ هنا إلى وصف "الشقندي" في رسالته التي يفاخر فيها أهل العدوة (المغرب) بما تنتجه الأندلس من "الحلل الموشاة."

2. الصناعة الاستخراجية والمعدنية: "عصب القوة والزراعة"

التحول هنا يكمن في تطوير تقنيات صهر المعادن وخلطها، واستغلال مناجم كانت مهملة أو اكتشاف أخرى جديدة.

- **الحديد والنحاس :**ضروريان لصناعة السلاح (السيوف، الرماح، الدروع) والأدوات الزراعية (المحاريث، السكك). اشتهرت مدينة **توليطلة (Toledo)** بجودة حديدها وسيوفها التي نافست السيوف الهندية والدمشقية.
- **الذهب والفضة:**
  - ارتباط حرفة الصياغة وسك العملة بتدفق "ذهب السودان" عبر سجلماسة.
  - تطور تقنيات "التلبيس (Tasting/Refining) "لضبط عيار العملة (الدينار والدرهم)، وهي عملية كيميائية دقيقة تتطلب حرفيين متخصصين (العيّارون).

3. صناعة الورق (الكاغذ): "ثورة المعرفة"

هذه نقطة مفصلية يجب أن يركز عليها الطالب، لأنها تبرز دور الغرب الإسلامي كجسر حضاري.

- **الانتقال التقني :**انتقلت صناعة الورق من الصين <- سمرقند <- بغداد <- مصر <-**القيروان وفاس** <-**شاطبة (Xativa) بالأندلس**.
- **التوطين والتطوير :**مدينة **شاطبة** في شرق الأندلس أصبحت "عاصمة الورق" في العالم الغربي. طور الحرفيون هناك تقنية استخدام الكتان والخرق البالية (Rags)لإنتاج ورق متين وناصع البياض (الشاطبي).

- **الأثر :**انخفاض تكلفة الكتابة مقارنة بالرق (الجلد)، مما أدى لانفجار في التأليف ونسخ الكتب وانتشار المكتبات.

4. صناعة الفخار والخزف: "الفن الوظيفي"

انتقل الفخار من مجرد أواني طينية بسيطة إلى تحف فنية ذات قيمة تصديرية عالية.

- **الخزف ذو البريق المعدني :(Lusterware)** تقنية معقدة جداً تتطلب شيّ الفخار عدة مرات بدرجات حرارة دقيقة لإعطاء لمعان ذهبي أو نحاسي. اشتهرت بها **مالقة (Malaga)** وبلنسية.
- **الزليج :(Zellij)** تطور في المغرب والأندلس كحرفة معمارية لتزيين الجدران والأرضيات، وتطلب معرفة هندسية دقيقة (التقطيع والتركيب).
- **التصدير :**العثور على قطع خزفية أندلسية ومغربية في كنائس إيطاليا وفرنسا (كانت تستخدم للتزيين) دليل على قيمتها العالية.

5. صناعة الجلود (الدباغة): "الماروكين"Maroquin

- ارتبط اسم "المغرب" عالمياً بالجلد عالي الجودة.(Morocco Leather)
- **المدابغ :**مدن مثل **فاس ومراكش وقرطبة** كانت تضم أحياء كاملة للدباغين (بسبب الروائح والمياه).
- **المنتجات :**السروج، الكتب (تجليد المصاحف والمخطوطات)، الأحذية (البلغة)، والدروع الجلدية (الدرقة اللمطية المشهورة في المغرب).

6. الصناعة البحرية (إنشاء السفن): "صناعة استراتيجية مركبة"

هذه الصناعة هي "أم الصناعات" لأنها تجمع النجارين، الحدادين، صناع الحبال، والقلافين.(Caulkers)

- **دور الصناعة :(Arsenals)** أنشأت الدول (الأموية، الفاطمية، الموحدية) أحواضاً ضخمة لبناء السفن في **تونس (حلق الوادي)، بجاية** (لوفرة خشب الغابات القريبة)، **ألمرية، ودانية**.
- **التطور :**بناء أساطيل حربية ضخمة (الشواني والحراقات) وأخرى تجارية لنقل البضائع الثقيلة.

"لم تكن هذه الحرف جزراً معزولة؛ فصناعة السفن احتاجت الحديد (تعدين) والأشرعة (نسيج) والكتان (زراعة)، وصناعة الكتب احتاجت الورق (كاغذ) والجلد (دباغة) والحبر (كيمياء). هذا **الترابط الهيكلي (Structural Interdependence)** هو ما يعكس قوة الاقتصاد في الغرب الإسلامي خلال تلك الفترة".

تفصيل المحور الثالث: التنظيم المؤسسي والمجالي للحرف:

في هذا المحور، سنناقش كيف تحولت الحرفة من مجرد "نشاط فردي" إلى "كيان اجتماعي وتنظيمي" داخل المدينة الإسلامية في المغرب والأندلس.

1. التنظيم المجالي (طبوغرافية الأسواق الحرفية)

يجب أن يشرح الأستاذ هنا فلسفة **"التمركز حول المسجد الجامع** ."الحرف لم تكن متناثرة، بل خضعت لمنطق دقيق:

- **مركزية المسجد :**الحرف "النبيلة" والنظيفة والهادئة تتمركز ملاصقة للمسجد الجامع (مثل: سوق الكتبيين، الوراقين، العطارين، بائعي الأقمشة الفاخرة/القيسارية). هذا يعكس ارتباط العلم والدين بالنظافة والهدوء.
- **الأطراف والهوامش :**الحرف "الملوثة" أو "المزعجة" تُطرد نحو أطراف المدينة أو قرب أبواب الأسوار ومجاري المياه (مثل: الدباغين "بسبب الروائح"، الحدادين والنحاسين "بسبب الضجيج"، الفخارين "بسبب استخدام الأفران والدخان").

- **التخصص المكاني (الرستقة) :**كل حرفة لها زقاق أو شارع خاص (سوق الغزل، سوق النجارين، سوق الصباغين). هذا سهل على المحتسب المراقبة، وعلى المشتري المقارنة بين البضائع.

مثال توضيحي :يمكن الاستشهاد بتخطيط مدينة **فاس** (المغرب) أو **قرطبة** (الأندلس) كنموذج حي لهذا التراتب (الكتبيين قرب القرويين، والدباغين بعيداً عند واد فاس).

2. مؤسسة الحسبة: (الرقابة وضبط الجودة)

هذا هو "الجهاز الشرطي الاقتصادي". الحسبة ليست مجرد وظيفة دينية بل هي **هيئة حماية المستهلك وضبط الجودة**.

- **المحتسب :**هو الموظف الحكومي المسؤول عن "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" في السوق.
- **آليات المراقبة:**
  - **معايرة المكاييل والموازين :**لمنع التطفيف والغش (باستخدام الصنجات الزجاجية أو المعدنية المختومة).
  - **مراقبة الغش الصناعي :**المحتسب كان يدخل الأفران والورشات ليتأكد (مثلاً: أن الخباز خبز العجين جيداً، أو أن النساج لم يخلط صوفاً رديئاً بجيد، أو أن الجزار لم ينفخ اللحم).
  - **تنظيم المرور :**منع أصحاب الأحمال والدواب من مضايقة المارة في الأسواق الضيقة.

3. التنظيم المهني (نظام الأمناء والعرفاء)

هل كان هناك نظام "نقابات (Guilds) "مثل أوروبا؟ الإجابة الأكاديمية الدقيقة هي: "كان هناك تنظيم مهني يُعرف بنظام العرفاء أو الأمناء"، وهو يختلف قليلاً عن النقابة الأوروبية المستقلة.

- **أمين الحرفة (أو العريف) :**هو شيخ الحرفيين، يُختار من بينهم لكفاءته وأمانته، وغالباً ما تعينه السلطة أو يصادق عليه المحتسب.
  - **مهامه :**هو حلقة الوصل بين السلطة والحرفيين. يجمع الضرائب، يفصل في النزاعات المهنية، ويشهد على جودة المنتجات.
- **التراتب المهني (الهرمية):**

1. **المعلم (الأسطى) :**مالك الورشة ورأس المال، صاحب الخبرة.
2. **الصانع :**الحرفي الماهر الذي يعمل بأجر.
3. **المتعلم (المبتدئ) :**الصبي الذي يدخل الحرفة ليتعلم أسرارها مقابل الطعام والمبيت أحياناً، ولا يتقاضى أجراً في البداية.

- **أخلاقيات المهنة (الفتوة) :**وجود أعراف غير مكتوبة تحكم العلاقات (احترام المعلم، عدم سرقة الزبائن من الجار، التكافل الاجتماعي عند مرض أحد الحرفيين).

4. دور الدولة: الجباية والتدخل

التنظيم لم يكن بريئاً دائماً، بل كان يهدف أيضاً لضمان تدفق الأموال للخزينة.

- **الضرائب (المكوس/المغارم) :**كانت الحرف مصدراً مهماً للدخل عبر الضرائب المفروضة على الإنتاج أو البيع في الأسواق.
- **الاحتكار :**تدخل الدولة أحياناً لاحتكار سلع استراتيجية (مثل الخشب لبناء السفن، أو أنواع معينة من الحرير).

الخاتمة العامة للمحاضرة(Synthesis)

بعد استعراض المحاور الثلاثة، يجب أن تكون الخاتمة تركيبية:

1. **النتيجة الأولى :**التحول الحرفي في الغرب الإسلامي نقل المنطقة من "الاقتصاد المعيشي البسيط" إلى "الاقتصاد التصديري المركب."

2. **النتيجة الثانية :**المدينة الإسلامية (بأسواقها ومساجدها وحرفها) كانت "بوتقة انصهار" دمجت العرب والبربر والمولدين وأهل الذمة في دورة اقتصادية واحدة.
3. **النتيجة الثالثة :**هذا التطور الحرفي مهد الطريق للنهضة الأوروبية لاحقاً عبر انتقال التقنيات (الورق، البوصلة، البارود، النسيج) من الأندلس وصقلية إلى أوروبا.

.2خاتمة المحاضرة (استنتاجات وفتح آفاق)

النص المقترح:

"ختاماً، يمكننا القول إن التحول الحرفي في الغرب الإسلامي لم يكن حدثاً عابراً، بل كان **تأسيساً لبنية اقتصادية متينة** مكنت دول المنطقة (من الأمويين إلى الموحدين) من تحقيق استقلال اقتصادي عن المشرق، ومن فرض سيطرة تجارية على الحوض الغربي للمتوسط.

لقد خلصنا من خلال محاور العرض إلى جملة من الاستنتاجات:

1. **تكامل المدينة والحرفة :**الحرفة هي التي صنعت "مدنية" الحواضر الإسلامية الكبرى (فاس، قرطبة، القيروان)، حيث تحولت المدينة من مركز إداري عسكري إلى "وحدة إنتاجية" ضخمة.
2. **دور الدولة المحوري :**لم تكن الدولة مجرد جابي للضرائب، بل كانت "المستثمر الأول" عبر إنشاء دور الطراز ودور الصناعة، مما حرك عجلة الابتكار التقني.
3. **الأثر الحضاري الممتد :**إن التقنيات التي نضجت في ورشات الأندلس والمغرب (صناعة الورق، البوصلة، تقنيات الري، والنسيج الفاخر) شكلت لاحقاً الأرضية المادية التي انطلقت منها النهضة الأوروبية، عبر جسور التواصل في صقلية وطليطلة.

وعليه، يبقى الباب مفتوحاً للبحث في :**كيف أثر تراجع هذا الإنتاج الحرفي لاحقاً في اختلال موازين القوى لصالح الضفة الشمالية للمتوسط مع بداية عصر النهضة؟"**

القائمة البيبليوجرافية (المصادر والمراجع)

أولاً: المصادر(Primary Sources)

1. **كتب الجغرافيا والرحلات (لوصف المنتجات والمراكز):**

- *صورة الأرض*، ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل).
- *المسالك والممالك*، البكري (أبو عبيد الله البكري).
- *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، الإدريسي (الشريف الإدريسي).
- *وصف إفريقيا*، الحسن الوزان (ليون الإفريقي).

2. **كتب الحسبة والأحكام (للتنظيم المؤسسي والمهني):**

- *رسالة في القضاء والحسبة*، ابن عبدون الإشبيلي (مصدر أساسي لأحوال حرفيي الأندلس).
- *آداب الحسبة*، السقطي (أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي - خاص بأسواق مالقة).
- *أحكام السوق*، يحيى بن عمر الأندلسي (مهم جداً للجانب الفقهي الاقتصادي).
- *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب*، الونشريسي (موسوعة للفتاوى المتعلقة بنزاعات الحرفيين).

ثانياً: المراجع الحديثة(Secondary References)

دراسات تحليلية حديثة تساعد الطالب على الفهم والتركيب.

1. **باللغة العربية:**

- محمود إسماعيل :*سوسيولوجيا الفكر الإسلامي*)يتضمن فصولاً هامة حول البنية الاقتصادية والحرفية).
- عبد العزيز الدوري :*مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي*.
- محمد المنوني :*تاريخ الوراقة المغربية* (مرجع متخصص في حرفة الورق والكتب).
- ليفي بروفنسال :*تاريخ إسبانيا الإسلامية* (المجلد الخاص بالنظم الاقتصادية والاجتماعية).
- إبراهيم القادري بوتشيش :*تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة* (يركز على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي).

2. مراجع أجنبية (لمن يرغب في التوسع):

- Pedro Chalmeta: *El Señor del Zoco en España*(دراسة معمقة حول نظام المحتسب في الأندلس).
- Thomas Glick: *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages*(دراسات مقارنة حول التكنولوجيا والاقتصاد).